

ملحة مرحلة التجميع

نحن نستطيع القول الآن بأن المرحلة الأولى في الرواية العربية والتي أسميناها بعصر التجميع تنقسم الى أقسام ثلاثة:

١ — الأساطير والروايات ذات المضامين الدرامية والتي عرفها العرب عن أبطالهم القدامى منذ خلق الله آدم الى عام الفيل واحداً .. ويقف على قمة هذا القسم كتاب التيجان لوهب بن منبه .. وهدف أصحابه يتجه الى الامتاع من ناحية واشباع حاجة العرب الى أبطال يحوون جماع فضائلهم الحربية والنفسية .. كما هدف أصحابه أيضاً الى إبراز المضامين الدرامية التي حوتها حياة العرب وعاشوا في أسرارها .. وهى بهذا كله قد جمعت تراثاً فنياً عربياً زائراً استمد منه العرب في مختلف أطوار حياتهم الروائية، ويستمدون منه بعد ذلك في كل أعمالهم ، فآثاره تظهر في الأعمال الروائية المتأخرة مما يدل على اطلاع أصحاب الروايات المتأخرة التأليف على أعمالهم وتقديرهم لها وتأثرهم بها ..

٢ — أساطير وروايات موجهة ، أى راعى مجموعها أن تسير الروح الإسلامية ، والعقلية الإسلامية ، وأن لا تتعارض مع ما جاء بالقرآن من قصص أن كان الموضوع واحداً ، فإن اختلف الموضوع فإن المضمون توجيهى إسلامى ، يخرج دائماً بحكمة

لا تتعارض ومبادئ الدين الجديد . . ويقف على قمة هذا اللون كتاب أخبار ملوك اليمن لعبيد بن شرية الذى يحوى مجالسه مع معاوية . . وهذا اللون لا يتقيد فيما يجمع من حكايات بزمن أو مكان أو أشخاص ، وانما هو حر طليق يختار ما يشاء ويقص ما يريد على أن لا يتعارض — كما قلنا — مع الدين ، فان تعارض فلا بد من تفسير هذا التعارض وتبريره . .

٣ — حكايات السيرة ، وهى حكايات تتعلق بحدث واحد هو الاسلام ، وشخص واحد هو محمد (ص) . الا أن هذه الحكايات تبدأ منذ يتخيل جامعوها أن هناك صلة بين ما يروون والرسالة الجديدة . . فهى تأخذ من الكتب الأخرى ما يخدم هذا الحدث ويتركون ما عداه ، ولعلك تلمح فى أكثر من موضع قول ابن هشام فى السيرة النبوية :

« وهو حديث طويل منعى من استقصائه قطعه حديث سيرة الرسول (ص) » .

فالأحداث عند أصحاب هذا اللون انما تخدم هدفا واضحا . وحرية من يجمع القصص ليست مطلقة وانما هى مقيدة بما يقيد أحداث السيرة نفسها . ويقف على قمة هذا اللون كتاب السيرة النبوية لابن اسحق . الذى يمكننا أن نعهده بحق أول عمل قصصى فى الاسلام . .

وسمات هذه المرحلة مرحلة التجميع تكاد تتشابه فى فهم

الاحداث ، وفي موقف أصحابها من الأساطير وشطحات الخيال ،
ومن صورة للبطل وصفاته وسماته مما فصلناه في مكانه ..

ونحب أن نوضح أن هذه المراحل الثلاث بينها من التشابك
والاختلاط ما يجعل الفصل القاطع بينها متعذرا ، إنما هي حدود
نحاول أن نضعها لنسهل البحث ونفتح الطريق ..

* * *

وبعد فلعلنا استطعنا أن نرسم الصورة التي تخيلنا لهذا
العصر الذي يعتبر بداية لظهور القصة في أدبنا العربي ..
ولعلنا أيضا نكون قد أجبنا على الكثير من الأسئلة التي أثارناها
في مستهل الكتاب ..

ولسنا في واقع الأمر نريد من بحثنا هذا إلا أن يكون
دافعا للأساتذة المتخصصين في معاودة النظر فيما قرروا من
أمر النثر العربي والقصة العربية ، فيقدموا لنا من أبحاثهم
ما يرد اعتبار الأدب العربي ويضعه في مكانه من الآداب العالمية
ذات الطابع الانساني ؟

فاروق خورشيد